Archive of SID

مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ٢، صيف ١٤٣٦ هـ
صفحة ٢١١ – ٢٢٩

محمّد الفيتوري من اليأس والعزلة إلى الوعي الذاتي والدعوة إلى التحرّر

علي سليمي[١*]، محمد حسن أمرابي[٢]

١. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي، كرمانشاه
٢. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي، كرمانشاه

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٣/٩ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٥/٧/٢٨)

الملخّص

لقد أصبحت المقاومة من المواضيع الّتي يدور في رحابها كثير من الشعراء المعاصرين. إنّ أصحاب الشّعر المقاوم يدعون إلى النضال للحصول على الحرية والاستقلال ملتزمين بقضايا المجتمع والوطن. يعدّ الشاعر السوداني المعاصر محمّد الفيتوري، من أكبر هؤلاء الشعراء المناضلين. يدرس هذا المقال بمنهج تحليلي- وصفي، تطوّرات شعر الفيتوري النضالي مشيراً الى الجدلية بين الشعور بالنقص النفسي والتمرد الرافض في شعره. نتائج هذه الدراسة تدلّ على أنّ الشاعر كان في البداية مستغرقاً في رومانسيته المتشائمة قضى قسماً من عمره بالخيالات المكنونة في نفسه الحزينة، ثمّ تغيّرت رؤيته الشعرية تغييراً جذرياً فتطوّر شعره من الرومانسية إلى الواقعية الإجتماعية، فأصبح من روّاد شعر الرفض والتمرّد في السودان وإنّ شعر الفيتوري في المرحلة الأخيرة تطوّر أكثر فلا يتعلّق بقضية إفريقيا فحسب، بل أصبح شعراً ثورياً عالمياً وإنّه مناجاة نفسية للتعبير عن الأحزان الموجودة في كوامن نفسه الثائرة، فأفريقا صارت عنده رمزاً للتخلّص من آلامه الموجعة. وله اتّجاهَ صوفي مزيج بالرفض والتمرّد.

الكلمات الرئيسة

الشعر العربي الحديث، الفيتوري، الوطنيّة، التمرّد، التمييز العنصريّ.

---

* الكاتب المسؤول
Email: salimi1390@yahoo.com

www.SID.ir

Archive of SID

مقدمة

إنّ شعر المقاومة والنضال من المظاهر العظيمة الّتي تستنهض إرادة وهمم الشعوب ضد الطغاة والمستعمرين الّذين لا يعرفون إلاّ الكبت والقمع والاحتلال. إنّ هذا الشعر يدور بدوره الرّيادي في تحريض وتأجيج مشاعر الجماهير وشاعر المقاومة هو الّذي يتكلّم عن حقوق شعبه الضائع ويحرض المظلومين علي استرجاع حقوقهم من الظالمين وتنبيه المضطهدين على عدم استسلام للمستكبرين. والشاعر المقاوم هو الّذي يجمع بين مصيره ومصير أمته المضطهدة ويتحمّل السجن والمشقات المريرة من أجل إقامة العدل والاستقلال رافضاً الاحتلال يعبّر عن هذا الرفض والتمرّد لهذا الواقع المرير الّذي يعانيه الشعب داعياً إلى المكافحة والنضال.

تجلّت وتبلورت هذه المشاعر النضاليّة الثوريّة بتمامها في قصائد الفيتوري ومقطوعاته، حيث تحمل في طيّاتها تفسيراً واضحاً لرغبات الشاعر ونزعاته في المجالات المختلفة من المقاومة والنضال. فاشتهر بذلك الفيتوري في قائمة المبدعين الرافضين المتمرّدين وقد ذاق الويلات والمصائب الجمّة في سبيل تمسّكه بكلمة «لا» واستمراره الدائم في سبيل المعارضة السياسيّة على طيلة خمسين سنة تقريباً.

إنّ الفيتوري بالرغم من أنّه أول شاعر عربي معاصر وقف شعره كلّه على السياسة والنضال ولكن للأسف لم يتطرّق إليه الأدباء والنقاد المعاصرون كما هو حقّه. إنَّ هذه المقالة تدرس بمنهج تحليلي- وصفي شعر الفيتوري وتحتوي على المحورين الاثنين: الأوّل يتطرّق إلى مراحل تجربة الفيتوري الشعريّة والثاني يدرس ملامح التمرّد والرفض في شعره النضالي وبالتالي قدّمنا نتيجة تبين صفوةَ ما حصلنا عليه.

أما بالنسبة لخلفية البحث ففي ما يلي نشير إلى ما بذلت من الجهود لدراسة آثار الفيتوري:

- «أيام مع محمّد الفيتوري» كتاب نشره غريد الشيخ في سنة (٢٠٠١م) وهو جزء من أجزاء «سلسلة أيام معهم»: مجموعة من قصص تمثيلية تحكي كلّ واحدة منها عن شاعر بأسلوب حديث. البطلة الرئيسية هي فتاة تستحضر أبطالها، تحاورهم وتتعاطف معهم وتتعرّف على حياتهم من خلال أحداث يروونها وأشعار يقرؤونها.

- «نقد وبررسي مضامين سياسي در شعر محمد الفيتوري» رسالة مقدّمة إلى جامعة طهران المركزية الإسلامية الحرّة، سنة ١٣٩١ش لنيل درجة الماجستير، درسها الباحثة الإيرانية راحلة

www.SID.ir

Archive of SID

محمّدي الأصل وتطرّقت فيها إلى الأحداث السياسية التي أصيب بها الشاعر الفيتوري من خلال أشعاره.

– «التراث في شعر محمّد الفيتوري» رسالة مقدّمة إلى جامعة مؤتة بالأردن درسها الطالب سلطان عيسى الشعار استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية سنة (٢٠٠٧م)؛ حيث درس فيها الرموز التراثية في شعر الفيتوري.

– «واكاوي رومانتيسم جامعه‌گرا در اشعار هوشنگ ابتهاج ومحمّد الفيتوري» مقال باللغة الفارسية قام به الباحثان الإيرانيان أميرحسين رسول نيا ومريم آقاجاني ودرسا فيه الواقعية في أشعار الفيتوري واجتماعياته. وهذا المقال نُشِر في مجلة الأدب المقارن بجامعة الشهيد باهنر – كرمان سنة ١٣٩١ش.

– «الفيتوري الضائع الذي وجد نفسه» كتاب للباحث إيمان يوسف البقاعي، طُبِعَ سنة ١٩٩٤م في بيروت، منشورات دار الكتب العلمية ودرس المؤلف فيه حياة الفيتوري وأدبه دراسة تحليلية.

– «الرؤية الأورفية والوعي ممكن في شعر الفيتوري» مقال كتبه بن عيسى بوحمالة سنة ١٩٨٧م في مجلة فصول، المجلد السابع، العدد الأول.

– «بررسي اشعار مقاومت محمّد الفيتوري در سه ديوان شعري (أغاني أفريقا، عاشق من فلسطين، اذكريني يا أفريقيا) رسالة مقدّمة إلى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الإسلامية الحرّة، فرع كرمانشاه لنيل درجة الماجستير، كتبتها الباحثة زهرا الشيرزادي باللغة الفارسية سنة ١٣٨٨ش.

– «بررسي اشعار عاشقانه وعارفانه در اشعار محمد الفيتوري» رسالة مقدّمة إلى الجامعة الإسلامية الحرّة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في الأدب قسم اللغة العربية وآدابها، كتبها جواد العزيزي باللغة الفارسية في عام ١٣٨٩ش ودرس فيها أدب الفيتوري دراسة تحليلية من حيث الوجد والتصوف أحيانا.

– «الاعتبارات الصوفية في شعر محمّد مفتاح الفيتوري» أطروحة كتبها ج. محمّد الخامس بتطوان الواقعة شمال المغرب سنة ٢٠٠٧م لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها ودرس الباحث فيها الفيتوري وأدبه الصوفيّ.

– «النزعة الزنجيّة في شعر السودانيّ المعاصر، محمّد مفتاح الفيتوري نموذجاً» رسالة كتبتها الباحثة حميدة بنت سويد سنة ١٩٨٦م، للحصول على درجة الماجستير في الأدب ودرست فيها الزنجية في شعر الفيتوري.

www.SID.ir

Archive of SID

– «شعر محمّد الفيتوري: المحتوى، الفنّ» كتاب لعبدالفتاح عبدالمحسن الشطينشر في لبنان منشورات دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع سنة ٢٠٠١م.

– «محمد الفيتوري والمرايا الدائرية» كتاب لنجيب صالح، طبعته منشورات الدار العربية للموسوعات في مجلد واحد في سنة ١٩٨٤م.

– «محمد الفيتوري شاعر الحس والوطنية والحبّ» كتاب نقديّ طبعه الدكتور منيف سالم موسى سنة ٢٠٠١م، في منشورات دار الفكر العربي وألقى فيه نظرة تحليلية *نقدية* على أشعار الفيتوري.

وغيرها من الدراسات المتناثرة في ثنايا الكتب والمجلات والمنشورة في المواقع الالكترونية الّتي ربّما جاءت بأشياء مهمّة عن شخصية الشاعر وأدبه وفاتتها أشياء أخرى لا تقلّ أهمية عنها، ورغم ذلك لم نعثر على دراسة شاملة وافية لموضوع المقال: محمّد الفيتوري من اليأس والعزلة إلى الوعي الذاتي والدعوة إلى التحرّر.

ولكن هذه الدراسات ما كانت تتعلّق وترتبط بدراستنا حول التمرّد والرفض في شعر الفيتوري. ههنا يجدر الإشارة إلى أنّ الفيتوري شاعر صوفي اجتماعي رافض متمرّد إلى حدّما. قد ألقى نفسه في مأزقٍ حرجٍ في سبيل هذا الحبّ والتعصب والالتزام، لذلك يستحق بالدراسة أكثر من هذا، لاسيما من ناحية أغراض شعره خاصةً أنّها لم تعالج النواحي والجوانب الفنيّة والبلاغيّة والنحويّة لقصائده وأشعاره.

الفيتوري بين الرومانسية والواقعيّة

الرومانسيّة الذاتيّة الحالمة:

نشأ الفيتوري في مدينة الإسكندرية وقد «كانت مدينة ذات طابع «كوزموبليتاني[١]» يكثر فيها الأجانب عن المعتاد وكان الفيتوري الأسمر القصير الأسود يحسّ بالغرابة والحزن والانفراد في ذلك المجتمع الّذي عاش فيه الشّاعر ولم يحس بالانتماء إليه وكان لتلك الحالة الوجوديّة الّتي تعذب بها أثر بالغ في شعره، فمنذ ديوانه الأوّل وهو يئن تحت وطأة الإحساس بالألم والغربة والحزن وكان إحساسه بالدمامة والزنوجة، مبالغاً فيه إلى حدّ العذاب» (محمد

١. مختلط، متعدد الجنسيات

www.SID.ir

Archive of SID

منصور، ١٩٩٥: ٢٠٣). في هذه المرحلة من حياة الفيتوري نلاحظ أنّ الوحدة والإنفراد والغربة هي الطابع الأساسيّ الّذي طبع حياة الشّاعر، كما ظهر أثره في شعره فصوّر هذا العذاب المرير في صورة مؤلمة:

فَقيرٌ... فوَجْهٌ كَأنّي بِهِ/ دُخَانٌ تَكَثَّفَ ثُمَّ الْتَحَمْ/ وَعَيْنَانِ فِيْهِ كَأُرْجُوْحَتَيْنِ/ مُثَقَلَّتَينِ بِرِيحِ الأَلَمْ/ وَأَنْفٌ تَحَدَّرَ ثُمَّ ارْتَمَى/ فَبَانَ كَمَقبَرَةٍ لَمْتَتِمْ/ وَمِنْ تَحتِهَا شَفَةٌ ضَخْمَةٌ/ بَدَائِيَّةٌ قَلَّمَا تَبْتَسِمْ (الفيتوري، ١٩٧٩: ١٧)

كأنّ الفيتوري في هذه القصيدة وقف أمام مرآة ذاته ليرى عيوبه الجسديّة حيث يصف حقاراته الّتي تنعكس على أعماق ذاته، فيشعر بالنقص كأنّه يكتشف سرّ المأساة الّتي ولدت معه والمأساة هي أنّه قصير وأسود ودميم. إنّ هذه التصورات الكامنة في ضمير الشاعر ورؤيته وإحساسه بمعاناة الإنسان الأسود في البداية جعله ذا طابع رومانسي ذاتيّ حزين نابع عن أحلام وجوده وكان يستشعر الكثير من المآزق حين ينظر في المرآة فكان لا يرى فيها غير وجه إنسان أسود فقير. كان يعتقد أنّ مأساة الإنسان الأسود الإفريقيّ يصنعه هذا اللّون والوجه الأسود فقط لا غيرُ وكان لا يعرف بأنّ الاستعمار لا يحتفل بأيّ قضية متعلّقة باللّون سواء الأبيض أو الأسود إنّما يريده هو احتلال الأراضي الإفريقيّة. إنّ هذه الرؤية الرومانسيّة الكامنة لم تكن تروق وتعجب لمواطنيه السودانيين ذوي البشرة السوداء، بحيث أصبحت موضع نقاش من قبل النقاد والمثقفين.

الواقعية الاشتراكية الملتزمة:

إنّ مدينة الإسكندرية قد لعبت دوراً جذريّاً مصيريّاً في تطور حياة الفيتوري في جميع أنحائها، ليس في مرحلته الرومانسيّة فحسبُ، بل في انتقاله إلى مرحلته الواقعية أيضاً. إنّ هذه المدينة كانت ملتقى الحضارتين المصرية واليونانية، فكانت لها أثر كبير في إيقاظ الفيتوري من رومانسيته؛ لأنّ الإسكندرية قد كرّست الحقد هذا الأسود ضد تسلّط الأبيض وإذلاله الآخرين، فكانت فيها للطبقة الأرستقراطيّة الأوروبيّة البيضاء إنّهم كانوا لا يعرفون للوجه الأسود إلاّ خادماً ذليلاً فخلق هذا التعامل في نفسيّة الشاعر رؤية حالمة ذاتيّة حزينة؛ لذلك يقال: «لم يكن الإهتمام من جانب الفيتوري بشعر الواقعيّ افتعالاً بل كان منطقياً مقبولاً» (محمد منصور، ١٩٩٥: ٢٠٤). ومن أثرات هذه التعاملات المؤلمة في مدينة الإسكندرية أنّها جعلت الشاعر يسافر بأشعاره إلى إفريقا وطن الجدود الّذين يجمعهم اللّون وتجمعهم

www.SID.ir

Archive of SID

مأساة الحزن والذلّ وبهذا الانتقال بدت مرحلة جديدة في حياة الشاعر، حيث خرج من أزمته الشخصيّة وتعاطف مع «الواقعية الاشتراكيّة» الّتي كانت تشرح الواقع للوصول إلى الأفضل وإلى الخير (العشماوي، دون تا: ١٨١). وغير نظرته فعالج الموضوعات والمفاهيم العصرية بايحاءات جديدة ورؤى جديدة بحيث أصبحت رائد الاتّجاه الواقعي في السودان، كأنّه كان يريد بهذه التغييرات الجذريّة في شخصيّته وشعره أن يخلق من أشعاره دنيا جديدة ويبثّ في الأحزان والغرابة والضياع الموجودة في أشعاره روحاً جديدةً حتّى يحيلها إلى السرور والمعرفة والاهتداء، حيث يقول في قصيدته «الغريب»:

النَّاسُ يولدون أغراباً/ وَحين تَلتَقِي الغربة بالغربة في طَريق/ يولدُ طفل الحبِّ والمعرفةِ.../ أجمل منه لم تشاهدْ قطُّ عَينانِ/ لأنّ أطفالَ الحياةِ حينَيولدون/ يخضوضرون لحظةً/ وينضجون ثمّ يسقطون/ في قبضة العاصفة/ لكنّ طفل المعرفة يخضر أشجاراً على طول الطريق (الفيتوري، ١٩٧٩: ٥٩)

صوّر الفيتوري في هذه القصيدة السفر والغربة الصارخة في وجوه النّاس والاضطراب والاكتئاب والناس الّذين يولدون كأغربةً. إنّ هذه القصيدة تعدّ بحقٍ زلزالاً شديداً فيشعر الفيتوري وحبّه لإفريقا وأضفى على أشعاره طابعاً ثورياً نضالياً جديداً وهذه الواقعية في شعره يصل إلى أعلاها في «أغاني إفريقا» حيث يسمع منه رنين جلجلة الإفريقيين يضربون في طبولهم لأجل الإنقاذ من استبعاد الاستعمار البريطاني وتوخّي الحريّة؛ عندما كتب الفيتوري ديوان شعره الأوّل فقد جذب إليه أنصار المدرسة الواقعيّة بسبب أنّ التزام الشاعر بالواقعيّة يحدوه إلى مواجهة «قضايا الصراعات الإنسانيّة والاجتماعيّة وحقائق الفن والموت والنضال والحياة» (يوسف بقاعي، ١٩٩٤: ٤٦). وإثارة قضايا الإنسان الإفريقي وعذابه ووقوعه فريسة للنهب الاستعماري والتفرقة والعنصريّة، بل العبودية والرقّ، فكتبوا في إشادته كثيراً بشعره الواقعيّ (محمّد منصور، ١٩٩٥: ٢٠٤). يقال في شأنه في هذه المرحلة الشعرية: "ليس المهمّ أن يكون للكاتب أو للشاعر ماض يجلس عليه، بل المهمّ أن يكون له مستقبل يرتقي إليه» (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٤٧). وفي جدليّة الآراء والنظريات بشأن تطوّر شعره بين الرومانسيّة والواقعيّة يمكن أن يقال إنّه على كلّ حال أصبح رائداً للاتّجاه الواقعي في السودان الّذي بدأ في بداية الأربعينات من القرن العشرين وليست الرؤية السابقة الّتي يعتبرها البعض من ملامح الرومانسيّة في شعره إلاّ عقدة الشخصيّة وأزمتها تجاه لونه الّذي يعذب الكثير من الأفريقيين منه حين يحتكون بالعالم الخارجيّ، تلك القضية الّتي تسمّى

www.SID.ir

Archive of SID

عند بعضهم «بالرؤيا الأفريقية» (بدوي، ١٩٨١: ٢١٠). فالشاعر الفيتوري عاش زمناً قليلاً برومانسيّته النابعة عن هذا الشعور «ثمّ يتخلص من هذه الأزمة حيث تصبح قارة الأفريقا قضيته ورؤياه التحرريّة (بدوي، ١٩٨١: ١٨١). فلذلك هو والشعراء السودانيين قد حركوا ركود القصيدة العربية وملأوها بالغضب والنار والتمرّد مبتدئين ثورتهم من واقعهم الحزين فإنّ هذه الموجات قد صبّت في نهر كبير اسمه إفريقا. لقد «أصبحت إفريقا رمزاً لتمزقهم وضياعهم وغليانهم، فقد أصبحت عند الفيتوري معادلاً لمعاناته وقناعاً يستطيع من ورائه أن يصرخ وأن يثور، بل وأن يحقد وأن يتحدّى» (بدوي، ١٩٨١: ٢١٨).

مراحل تطوّر شعره

مرحلة اليأس والتوتّر الذاتي:

كان الفيتوري في البداية لا يهتمّ بالمقاومة بل كان مليئاً باليأس بسبب لونه ووجهه السوداء، بحيث كاد يصيبه مرض نفسي بسبب هذا اللّون من خلال تفكراته العبثيّة. إنّه كان في البداية يزعجه لون بشرته أكثر من أي شيء آخر فأثّر هذا في شعره تأثيراً بالغاً وهو يَئِنُ تحت وطأة الإحساس بالألم والغربة والحزن وكان إحساسه بالدمامة والزنوجة، كما يقال مبالغاً فيه إلى حدّ العذاب فصوّره في صورة مؤلمة:

> فقيرٌ أجلْ... ودميمٌ دميم/ بلونِ الشتاء، بلون الغُيُومِ/ يسير فتسخر منه الوجوه/ فيحمل آلامه في جمود/ ويحضنُ أحزانه في وجوم/ ولكنّه أبداً حالمٌ وفي قلبه يقظات النجوم/ فقيرٌ.. فوجهٌ كأنّي به دخانٌ تكثّفَ ثمّ التحمْ/ وعينان فيه كأرجوحتين/ مثقّلتين بريح الألم (الفيتوري، ١٩٧٩: ١٧)

إنّ الفيتوري في هذه القصيدة يخجل من نفسه بسبب لونه السوداء كأنّه يظنّ بأنّ جميع الناس دائماً ينظرونه ويسخرون منه وكان يحسّ بأنّه يثير فيهم روح السخرية والاستهزاء لذلك يكمن أغمامه في أنحاء نفسه فيكون دائماً حالماً وهذه الرؤية الخياليّة الذاتيّة يمنعه التفكّر بشأن واقعيات مجتمعه. مع أنّ الشاعر الفيتوري كان شاعراً ملتزماً ذا صبغة دينيّة وفي حين أنّه كان من حفاظ القرآن الكريم ولكنّه لم يتأثر بالقرآن في رأيه هذا ولو كان يدرك ما ورد في القرآن الكريم بشأن اختلاف الألوان والألسنة ويعتبرها آية من آيات الله، لا يخجل لسواد بشرته أبداً. لقد عاش في هذه المرحلة عيشة متواترة مملوءً بالتشريد الذهني. كانت بشرته السوداء تقيم بينه وبين المدينة الّتي يحيا فيها حاجزاً كثيفاً يحرمه المشاركة

www.SID.ir

Archive of SID

والاندماج ويؤجج في باطنه مشاعر مريرة صفراء ويشحذ حساسيته. إنّه كان يظنّ أنّ مأساته ومأساة الإنسان الأسود الإفريقي يصنعها هذا اللون والوجه الأسود. هو في هذه المرحلة لم يكن شاعراً اجتماعياً مهتمًّا بقضايا شعبه بل كان يفكر كشعراء الرومانسية المتشائمة كان دائماً غارقاً في أفكاره وأوهامه السوداويّة المؤلمة. إذن حمل الفيتوري عبء الانفراد والوحدة والإحساس بالألم الناتج عن اللون الأسود؛ لأنّه عاش في عصر كان الرومنتيكية في أوجها ولهذا يعدّ الملمح الرومنتيكي عنده ملمحاً أصيلاً بحكم طبيعة الشاعر المغترب، المتوحد، الحزين وبحكم العصر الّذي نشأ فيه وترعرع في أكنافه. فلذلك نلاحظه قد توقف عند جبران أكثر من غيره؛ لأنّه كما يقول غريب وحزين ومنكسر القلب مثله كما توقف عند إبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل وحسن كامل الصّيرفي، من شعراء جماعة آبولو وعند الشاعر محمد عبدالمعطي الهمشري والشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير وكلّهم من الرومنتيكيين.

مرحلة اليقظة والشعور بالوعي:

عندما كان الشاعر أسيراً في أفكاره الذاتية الحالمة ورؤيته غير واقعيّة، كان مواطنوه الأفريقيون ذوو البشرة السوداء ينتقدونه بسبب رؤيته هذه. هذه الانتقادات أثّرت في نفسية الفيتوري وأوقظه من سباته العميق فتغيّرت رؤيته إلي الشّعر وتبدّل فنونه الشّعريّة من الرومانسية الغنائيّة إلى الواقعية الاجتماعيّة، فأصبح شاعراً نضاليًّا لا يهمّه اللون ولا يفكر إلاّ بالجماهير، فأصبح من الذين يعتقدون بأنّ: «العامل الأسود والعامل الأبيض يرزخان تحت نير تأريخي واجتماعي واحد هو نير الرأسمالي الأبيض والرأس المالي الأسود، نير الاستعمار والاستغلال، فالقضية إذن ليست قضية أسود وأبيض، إنّها قضية مستغِلّ ومستغَلّ، قضية الكادحين وأصحاب رؤوس الأموال» (غريد الشيخ، ٢٠٠١: ٢٥). في هذه المرحلة أصبحت الحريّة الهدف الأوّل والأسمى لنتاجاته الشّعريّة فوقف شعره كلّه لهوىً قديمٍ ولد معه ورافقه منذ طفولته وهو حبّه لأفريقا الّتي منحها كلّ ما ملك من شغف وفكر وتمرّد.

إنّ الفيتوري في هذه المرحلة من شعره النضاليّ قد تجاوز عن تخوم أفريقا وصارت قضيته لم تكن أرض الأفريقا فحسبُ بل شملت الأمة العربية الاسلامية، فيستدعي في شعره النضاليّ الحوادث والشخصيّات التأريخيّة كانتصارت العرب على هولاكو وبطولات صلاح الدين الأيوبيّ وجمال عبدالناصر وهي التي كان الشاعر يعيش في انتظار مبعثها وولادتها من

www.SID.ir

Archive of SID

جديد على أرض فلسطين. منها ما أنشده في رثاء جمال عبدالناصر المعنونة بالناصريّات الّتي نشرت في ديوانه (الفيتوري، ١٩٧٢: ٥٢):

وكان يد العربي الأوّل،تشعل كلّ مآذن مكة/ كأنّك كنت تقاتل تحت لواء محمّد (ص) في مجد الإسلام/ ورحلت غريباً تحملك الأيام/ كي تبصر ظلّ جوادك عبر موانى بحر الروم/ ونبني أهرمات أمية فوق جبال الشام/ وحين تجيء سحابة هولاكو التتاري.../ وتزحف أذرعة التنين../ وتنهار الأشياء جميعاً../ تولد ثانية في عصر صلاح الدين.../ إنّي أصغى لصدى خطواتك في أرض فلسطين/ أو أنت قادم عند الفجر إلى أرض فلسطين

في هذه القصيدة يرينا الفيتوري قضية عامة شاملة فيعرّف عبدالناصر كقضية عالمية مرتبطة بكلّ كيانات العالم العربي، إن قضية موت عبدالناصر في هذه القصيدة ليست مجرد حادث عارض، أو مناسبة يمكن اختزالها في قصيدة رثاء. ففي رأيه أنّ عبدالناصر هو القوميّة العربية والوحدة الكبرى وكلّ الأحلام العربية المأمولة ومن ثمّ يتحوّل عبر شاعرية الفيتوري إلى فكرة مجرّدة تعبّر عن النضال المستمر، فكرة ولدت مع مولد العربي الأول وتنامت مع تاريخ العروبة والإسلام مرورًا بالأمجاد العربية. وفي رأيه إنّ استدعاء شخصيّة الأبطال للكفاح ضد الاستعمار في الواقع يكون استدعاء كلّ القوميّة العربية والوحدة الكبرى في كلّ أنحاء العالم، قضية أفريقا، قضية فلسطين، قضية لبنان، فتشأة الفيتوري ورحلته الطويلة مع الأدب والسياسة والصحافة جعلته شاعر التخوم لا ينتمي إلى وطن نهائي، كما يقول الكاتب اللبنانيّ عبده وازن؛ فهو يقيم على تخوم الخريطة العربية والإفريقيّة، وعلى تخوم العروبة والزنوجة أيضًا وكذلك على تخوم الغناء والالتزام والكلاسيكيّة والرومنطيقيّة والحداثة، فيقال في شأنه: «يجب أن يكون الفيتوري كشاعر، سفير النوايا الحسنة إلى جميع الدول العربية» (غريد الشيخ، ٢٠٠١: ٢٠١).

شعره النضاليّ وقضاياه المصيرية

إنّ أدباء الرفض ومبدعي التمرّد والّذين تجاوزوا المألوف في الشعر العربي المعاصر كثيرون على خارطة الوطن العربي الفيتوري من أبرز هؤلاء الشعراء الذين يسمّون بـ«أدباء الرفض والتمرّد» في الوطن العربي. إنّ الفيتوري هو الشاعر الّذي قد أحسّ مشاكل الإفريقا والعرب معاً. إنّ شعره نسخة توافق الأصل لمشاكل الإنسان المضطهد ومعاناته في جميع أنحاء العالم الثالث وفي جميع دواوينه يتراءى حرمان الجيل الأسود ومعاناتهم في بيان مؤثر وصميم. إنّه

www.SID.ir

Archive of SID

من الشعراء الممتازين لجيل قد تطرّقوا إلى الشّعر بعد الحرب العالميّة الثانيّة ولأجل الأرضيّة الاشتراكيّة وحدّة اللحن ولسان الشعر لاسيّما في بلده إفريقا، لابدّ أن يُعَدَّ في الطابور الأوّل بين الشعراء المتقدّمين في أدب المقاومة و«أغاني الإفريقا» جعل «اسم الفيتوري يقفز بسرعة ليقف بجدارة بجانب اسم نازك الملائكة والسياب وعبدالصبور والبياتي» (غريد الشيخ، ٢٠٠١: ٢٠). كانت قصائد الديوان تدور حول القارة السوداء وعذاباتها ومعاناتها وحثّها على النهضة والوقوف بكرامة في وجه المستبد الأبيض الّذي استعبد إنسانها وعبث بتأريخها وخنق حرّيتها واستغلّ ثروتها. إفريقا هي الأرض المحبوبة للشاعر الّتي وقف عندها طويلاً في أشعاره وقد تمثّلها على هيأة امرأة يعشقها ويتّحد بها ويفني فيها كما يفني الصوفي في ذات الحقّ، فهو لا يبالي بأيّ عذاب يلاقيه بسبب معشوقه، بل انّه يتحمّل القتل في سبيل هذا الوطن لأنه حياة له:

كُنْتُ أعرِفُ.. وأنا احتَضِنُ الرايَةَ مِنْ مَنْفَي لِمَنْفَي/ إنّهُم قَتَلُونِي مَرَةً واحِدَةً../
أولدُ فِي عَينَيكِ أَلْفاً (الفيتوري، ١٩٩٢: ٥)

فحبّ الوطن بهذه الشمولية لم يلاحظ عند أيّ شاعر آخر إلاّ ما اشتهر به الشاعر الفلسطيني «محمود درويش» إذ تحلّ فلسطين محل المرأة المحبوبة المفقودة (محمّد منصور، ١٩٩٥: ٢٠٩). إنّ أوّل قضية تتجلّى نوازعه في قلب الفيتوري بعد يقظته، قضية إفريقا القارة المتوحشة السوداء بسكانها الزنوج الحفاة العراة. فينظم فيها أربعة دواوين، فيصدر مجموعته الشعرية اللأولي «أغاني إفريقا» وهو في هذا الديوان يدافع عن إفريقا وشعبها الّذي استعمره الرجل الأبيض، واستغله واحتقره ويصوّر أحاسيس الرّجل الأسود الّذي يدافع عن كرامته وحريته وحقّه في الحياة، فيقول:

جبهة العبد... ونعل السيدِ/ وأنين الأسود المضطهَدِ.../ تلك مأساة قرون غبرت/ لم أعد أقبلها... لم أعدِ/ كيف يستعبد أرضي أبيضٌ/ كيف يستعبد أمسي وغدي؟/ كيف يخبو عمري في سجنه/ وجدار السجن من صنع يدي/ أنا زنجيّ.../ وإفريقيتي لي لا للأجنبي المعتدي/ أنا فلاح ولي أرضي.../ الّتي شربت تربتها من جسدي/ أنا إنسان ولي حريّتي/ وهي أغلى ثروةً من ولدي/ أنا حرّ مستقبل البلدِ/ وسأبقى مستقبل البلدِ... (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

إنّ الفيتوري يحاول أن يستحضر إفريقا وأمتها عذابات أزمنة مضت، حتّي يحرّضهم على الحرية والتحرير في سبيل إطلاق السراح عن عبوديتها واستغلالها. في الحقيقة تبلور

www.SID.ir

Archive of SID

شعر الفيتوري في أفريقا والدفاع عن قضاياها والذود عن مصالح شعوبها فهو لا يتنكر لواقعه وقوميته العربية، فهو عربي أوّلاً وإفريقي ثانياً. فلا عجب أن نجد في شعره التيار العروبي هادراً صاخباً وهو لابدّ أن يتأثّر بواقع أمته العربية والدفاع عن قضاياها.

مع أنّ كلّ ممتلكاته الحربيّة تكون قلمه ولكن في ديوانه «أغاني أفريقا» يسعي ويحاول أن ينصر الجنس الأسود ويحرّرَ الأفريقيّ ويؤصّلَ شخصيّته وذلّته وينفضَ الضعف والوهن عنه ويخلصَهُ عذاباته وغربته من خلال الدعوة إلى المناضلة الإنسانيّة؛ لأنّه محبّ لأفريقا حبّ أورفيّة[١] ويتوخّي سعادتها:

يا أخي فِي الشَرق، في كلّ سَكَنْ/ يا أخي فِي الأرض، في كلّ وَطَنْ/ أنا أدعُوكَ.. فَهَل تَعْرِفنِي؟/ يا أخاً أعرفُهُ.. رَغمَ المِحَنْ.../ فَاسْتَمِعْ لِي.../ فَاسْتَمِعْ لِي (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

ثمّ يتّجه إلى الجماهير الّذين قد نوّر نور الوعي قلوبهم ويشوّقهم ويشجّعهم للاقتداء به حتّى يكافحوا ويسجلّوا تاريخ شعبهم بالقوة، من هذا المنطلق يسعى في تأجيج مشاعرهم للنضال ضد الاستعمار:

فَانْظُرِ الأَصْرَارَ فِي أعيُنِهَا/ وَصَبَاحُ البَعثِ يَجْتَاحُ الجبَاهَا (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

ثمّ يدعوهم الشاعر إلى الثورة:

«يا أخي في كلِّ أرضٍ وَجَمَت شَفَتَاها/ واكفَهَرَّت مُقلَتاها/ قُم.. تَحَرّر من توابيتِ الأسى/ لَستَ أُعجوبَتَها أو مومياها/ انطلق فوقَ ضُحاها أو مساها/ يا أخي قد أصبحَ الشعبُ إلها (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

وفي نهاية هذه الحرب الدامية الّتي صوّرها الشاعر في قصيدته هذه يدعو لبلدته الإفريقا جمعاء لتكون سالمة راجياً أن يرجع هذا الفردوس الضائع إلى أحضان أبنائه:

فَاسلِمِي يَا أرضَ إفرِيقَا لَنَا/ واسلَمِي يَا أرضَ إفرِيقَا لَنَا.../ وستَبْقَي أرضُ إفريقا لَنا/ فَهْيَ ما كانت لِقَومٍ غَيْرِنا (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٥-٧٦)

---

١. الأورفيوس: اسم أطلق على دين كان يعتنق ويمارس في اليونان القديمة والعالم الهلنستي، والتراقيون، ارتبطت أدبياً بأسطورة اورفيوس. أسطورة. وحبّ أورفيّ أي حبّ أسطوريّ.

www.SID.ir

Archive of SID

ثمّ يخاطب الفيتوري الاستكبار الأبيض بنبرة مملوءة باستهزاء واضح عندما يعلو صوت الشعب ضد هذا المستغل الّذي قد احتلّ أرضه وجعله ضعيفاً فيقول:

فَاخْلَعْ تَاجَكَ الآنَا/ كَفَاكَ مِنَّا ضَرَعَاتٍ وَإذعَانَا/ وَحَسْبُنَا مِنْكَ تَخْرِيباً وطُغْيَانَا... إفريقا/ إفريقا استيقظي/ استيقظي من حلمك الأسود/ قد طالما نمتِ... ألم تسأمي؟../ ألم تملّي قدم السيدِ؟.. (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٦)

هو الرجل شديد الالتزام لقضية الوطن، أرض إفريقا واستغلالها هي الّتي دفع الفيتوري إلى أن يقرع الطبول. فقد أصبحت إفريقا عنده معادلاً لمعاناته وقناعاً يستطيع من ورائه أن يصرخ وأن يثور والملاحظ أنّ الشاعر في هذا الشعر يخاطب إفريقا دون حرف النداء للدلالة على أنّ المنادى معلوم وقريب حسيّاً ومعنويّاً. لقد بدأت القصيدة بزرع بذور الوعي في روح النائم شبه بالميت، فالنوم على مثل هذه الحالة لا ينتج إلاّ الكوابيس والأحلام السوداء... ثمّ أردف قائلاً بفعل الأمر «استيقظي» ناهياً شعبه عن الغوص في الأحلام والأماني تاركين العمل والثورة، وقد استعمل الفيتوري هذا الأسلوب للفت انتباه الشعوب الإفريقيّة وتنبيههم لأوضاعهم السوداء المتخلّفة وضلالهم اللا متناهي.

ألم تملّي قدم السيّدِ؟/ قد طالما استلقيتِ تحت الدجى/ مجهدة.. في كوخك المجهدِ/ مصفرّة الأشواق../ معتوهة.../ تبني بكفيها ظلام الغدِ../ جوعانة تمضغ أيامَها/ كحارس المقبرِ المُقعَدِ../ عريانة الماضي../ بلا عزّة تتوّج الآتي../ ولا سُؤددِ.. (الفيتوري، ١٩٧٩: ٦١-٦٢)

ههنا يتكلم الفيتوري بلهجة الأم الحنان لابنه، ويقول قد نمت مدة طويلة دون أن تتمتع بدفء الشمس واستنشاق الهواء النقي، وتظل غارقاً في الأسود، في اللّون المزعج. ألا تريد أن تصحو، حتى متى تريد أن تصل ليلك بليل آخردون أن ينتظرك قادم مُضيء فصارت إفريقا «رمزاً للخلاص الّذاتي» «يخلع عليها مأساته الخاصة» (العالم، ١٩٧٩: ٤٧) يعني في الحقيقة هذه الآلام له ولكنّه يأخذ إفريقا ويخفي من وراءها قناعاً ويعزوا هذه القضايا إلى إفريقا، ثمّ يواصل الشّاعر فيتصوّر إفريقا أنّها رغم دوران الزمن قد ظلت نائية عن كلّ التغيّرات ساكنة بلا قيمة كالجمجمة الملقاة، ثم تنعتها بأنّها أمَةٌ وضائعة:

إفريقا/ إفريقا استيقظي/ استيقظي من ذاتك المظلمةْ.../ وأنتِ لازلتِ كما أنت/ كالجمجمةِ الملقاة../ كالجمجمةْ../ واعجباً ألم تفجّرْ شراييِنك سخرياتهم يا أمَةْ (الفيتوري، ١٩٧٩: ٦٣)

www.SID.ir

Archive of SID

إنّ «الموت والليل والجمجمة» كلّها رموز للواقع الّذي لا بدّ أن تتغيّر وفي هذه القصيدة الكثير من الأمل بالمستقبل وقدرة الشعب على تغيير مصيره إذا توفرت فيه العزيمة والإصرار للمكافحة والنضال. يقول قد آن وقت الحركة والتحدّي، وهي دعوة صادقة إلى الثورة على الظلم والاستعباد والاستعمار أيّاً كان شكله. إنّ إفريقا منبع ومصدر لإلهامات الفيتوري في مقاومته ونضاله و«عندما يهاجسه إفريقا والرجل الأبيض الّذي أذلّها واستغلّها، يقرع الطبول (ميشال جحا، ۱۹۹۹: ٤٤٥):

يا أخي في الشّرقِ في كلِّ سَكن/ يا أخي في الأرضِ في كلِّ وطن/ أنا أدعوك فَهَل تَعرفُني؟/ يا أخاً أعرفُهُ رُغمَ المِحن/ إنَّني مزَّقتُ أكفانَ الدُّجَى/ إنَّني هدَّمتُ جُدرانَ الوَهَن.../ أنا حيٌّ خالدٌ رَغمَ الرَّدَى/ أنا حرٌّ رغمَ قُضْبَانِ الزَمَن (الفيتوري، ۱۹۷۹: ۷۳-۷۲)

ثمّ يستذكرهم ماضيهم المؤلمة حتّى يثيرهم في سبيل الحرية ويستعيدهم للقيام فدعوة من حرّ يكسر قيوده. ودعوة للإصغاء إلى الصوت المجلجل العالي. يقول إنّ كفاحه في سبيل مجدهم ويخاطبهم بأنّ الآذاء والآلام الّتي تلاقيهم في سبيل تحرير وطنهم تهون تجاء تحرير الوطن وإزالة العار والعيب:

«إن نَكن سِرنا علد الشّوك سنينا.../ إن نكن عشنا حفاة جائعينا.../ إن تَكن أوهَنَتِ الفأسُ قُوانا/ فَوَقَفنا نتَحدّى الظّالمينا.../ فَبَنَينا لِأمانينا سُجونا.../ وملأنا كأسه من دمنا/ فتساقانا جراحاً وأنينا/ وجعلنا حجر القصر رؤوسا/ ونقشناه جفوناً وعيونا/ فَلَقَد ثُرنا علد أنفُسِنا/ ومحَونا وَصمةَ الذِّلَّة فينا (الفيتوري، ۱۹۷۹: ۷۳-۷۵)

ثمّ يدعوهم الفيتوري إلى التحرّر واليقظة ويعدهم الفتح والرجاء بإطلاق السراح عن إسارتهم، بأبيات فيها الصوت والحركة يمتزجان في لوحة معبرة:

الملايينُ أفاقَت من كراها/ ما تَراها مَلَأ الأفقَ صداها/ خَرَجَت تَبحثُ عن تاريخِها/ بَعدَ أن تَاهَتْ على الإرضِ وتَاها (الفيتوري، ۱۹۷۹: ۷۵)

الآن قد حان زمان العمل والتحرك، إنّ الفأس رمز العمل، والجموع المنحدرة من الروابي خرجت تبحث عن تاريخها، والبحث عن الذات هو نقطة البداية نحو التحرك والعمل. وقد قرب صباح البعث أي: فجر الثورة. يقول:

حَمَلَت أفؤسَها وانحدرت/ من روابيها وأغوارِ قُراها/ فَانظُرِ الإصرارَ في أعينها/ وصياحَ البَعثِ يجتاحُ الجِباها (الفيتوري، ۱۹۷۹: ۷٦)

www.SID.ir

Archive of SID

إنّ الشاعر للمرة ثانية يدعو إخوانه مكرراً، في دعوة شاملة «في الشرق وفي كلّ وطن» أيضاً «في الأرض وفي كلّ وطن». ونلاحظ النداء الإنساني المتكرّر «يا أخي» منذ بداية هذه القصيدة الملتزمة فهو نداء إنساني لكلّ مظلوم ومقهور ومستعبد. ويقول: يا أخي في ذلك البلد الّذي ليس عند أمتهم رجاءٌ للحياة في القادم، أنت يا أخي قُمْ وأنجُ أنت نفسك من ألم وكدّ الاستعمار، بينك وبين غيرك من الناس تفاوت كبير وبون شاسع، أنت لست موميائياً ومحنطاً للاستعمار. إنّما أنت حرّ، إذن في أمسّ الجاجة إلى أن تعيش حراً في الحياة اليوم وفي القادم.

يا أخي في كلِّ أرضٍ وَجَمَت شَفَتاها/ واكفَهَرَّت مُقلَتاها/ قُم.. تَحَرّر مِن تَوابيتِ الأسى/ لَستَ أعجوبَتَها أو مومياها (الفيتوري، ١٩٧٩: ٧٢-٧٣)

ثمّ يؤكد بأنّ الوطن متعلّق به، ولا يقف موقفاً سلبياً تجاه قضاياه، بل إنّما هو الناصح الأمين لقومه، وينصحهم بأن يأخذوا حقوقهم المسحوقة المغتصبة، وألا ييأسوا أبداً في سبيل تحقيق تحرير إفريقا. حتّى يكون بعد ذلك التحرير لإفريقا، قبره في جوار قبر آبائهم الغابرة:

ها هُنا وارَيتُ أجدادي.. هُنا/ وهُمُ اختاروا ثَراها كفنا/ وسأقضي أنا من بعد أبي/ وسيقضي وَلَدي من بعدِنا/ وستَبقي أرضُ«إفريقا» لَنا/ فَهي ما كانَت لِقَومٍ غَيرِنا (الفيتوري: ٧٥-٧٦)

يستذكر بأنّ أبناء إفريقا واحداً تلوَ الآخر يفدون أنفسهم في سبيل حرية إفريقا.كلّ أبناء أرض إفريقا مستعدون للتضحية في سبيل الوطن، ومنهم من اختار كفناً وامتزج بها. ومنهم من ينتظر هذا الشرف. وههنا الفيتوري يكون شاعر القضية: قضية الوطن، والحرية.

نحن أهرقنا عليه دمنا/ ومزجنا بثراها عظمنا/ وشققناها بحاراً ورُبى/ وزرعناها سيوفاً وقنا/ وركزنا فوقها أعلامنا/ فاسلميا أرض إفريقا لنا/ فاسلميا أرض إفريقا لنا (المصدر نفسه: ٧٥-٧٦)

إنّ أرض إفريقا، أرض تمازج التأريخ والتربة والدم. وهي الأرض المجبولة بالذكريات المؤلمة والسعيدة بالمعاناة وبالتحدّي، وبإرادة البقاء عليها. ثمّ يؤكد الشّاعر الفيتوري على الحرية والاستقلال وطرد كلّ غريب آخذاً الأرض من المستعمرين الّذين اغتصبوها.

لقد جعل الفيتوري كلّ شعره في هوى أفريقا. هذا الهوى يكبر معه وهذا الحبّ هو سرّ عذاباته وتشرّده، حيث يقول في قصيدته «عاشق من أفريقا» وهي قصيدة من مجموعة شعريّة نشرها عام ١٩٦٤ عنوانها: «عاشق من أفريقا». هي تأتي في نطاق القضية الكبرى الّتي التزمها الشاعر، قضية القارة الإفريقيّة الّتي أخذت تشقّ طريقها إلى التحرّر والانطلاق في الدّنيا الحياة

www.SID.ir

Archive of SID

المعاصرة، عبر مجموعة من الثورات تشنّها ضد الاستعمار والتخلّف والتفرقة العنصريّة في أماكن متعدّدة، وتحوّل معاركها عن مفاهيمها السطحيّة اللونيّة «بين بيض وسود» إلى المفاهيم والقيم الإنسانيّة الّتي تجعلها معارك الشعوب المسحوقة مقهورة ضد الاستعمار بغية التحرّر من الطغيان والاضطهاد والقهر والعبودية، لاسيّما في الإفريقا العربية الّتي ينتمي الفيتوري إلى أحد بلدانها. والقصيدة تعبير عن أشواق الإنسان الإفريقيّ الحديث وتطلعاته نحو المستقبل، وتحسس بالجرح والقيود، وما ينجم عن ذلك من ردات فعل مضمونها التمرّد والتحدّي والثورة. يقدّم الفيتوري نفسه إلى القراء شاعراً ملتزماً صناعته الكلام، وسيفه قلمه يناضل به في سبيل الحقّ والحريّة، وثروته شعر يعتزّ به ويجلّه عن أن يسخّر لمآرب الملوك وأهواء العظماء. فلقد وقفه على هوى متأصل في كيانه، يكبر معه، وينمو على كرّ الأيام وهو سر مأساته، وغربته وضياعه وتشرّده وسأمه وعذابه، وفرحه وشقائه، وأمله في الحياة، وكنهه في الوجود، وهاجسه الأكبر حيثما حلّ:

صَنَاعَتِي الكَلَامْ/ سَيْفِي قَلَمِي/ وَكُلُّ ثِرْوَتِي شُعُورٌ ونَغَمْ/ لَستُ وَاحداً مِن أنْبِيَاء العَصرْ.../ لَكِنَّ لِي هَوًى يَكبُرُ كُلَّمَا أكبُرْ/ لَمْ أمنَحْهُ مَرَةً لِمَلِكٍ مُتَوَّجٍ/ وَلَمْ أمَرِّغْ وَجْنَتَيه فَوقَ أعتَابِ صَنَمْ/ صناعتي الكلامْ/ قد أجيدُ تَارَةْ... وقد أخطئُ تَارَةْ.../ كُنتِ عَذابِي أنتِ يا إفريقيا/ وَكنتِ غُربَتِي التي أعيشُها/ وشئتُ أنْ أعيشَها (الفيتوري،١٩٧٠: ٧-٨)

إذا كانت مأساة إفريقا مقدّر للشاعر فإنّه لا يتململ من ذلك ولا يشعر بغضاضة ولابرم، فهو الّذي شاء هذا الأمر وبملء إرادته حمل على كتفيه صليب القارة السوداء وباختياره الحرّ ارتضى أن تكون عذابه وغربته وحبّه الكبير لتكون أغانيه كلّها لها وقصائده وقفاً على هواها:

«وَحينَما غنَّيتْ غَنَّيتُ لِعَينَيكِ/ وَمَسَّتْ شَفَتي في وَلَهٍ رُمُوشَها/ حينئذٍ رأيتُ فيهما توهُّج الألَمْ/ رأيتُ فيهما العَذابَ والشموخَ والشّمَمْ» (الفيتوري،١٩٧٠: ٨-٩)

لقد توحّدت الحبيبة والوطن في شعر الفيتوري وظهور هذا الوطن ـ القارة الإفريقية في هذه القصيدة ـ كأنّه صبيّة حسناء يهيم بها الشاعر ويمنحها كلّ حبّه. والملاحظ أنّ التداخل بين الألم والعذاب من جهة، والشموخ والشمم من جهة ثانية، قد جعل الحبّ الأليم المعذّب ضرباً من الشموخ والكبرياء. وفي غمرة الأحزان تتفجر كلمات الشاعر إيقاعاً كئيباً خلال دوامة من العذاب والقنوط:

صناعتي الكلامْ/ رُبَّما أثقَلَ صَوتي الضعفُ والرهبةُ أحياناً/ فَعادَ لي صَداهْ، باكياً حَزينَ المُقلتينْ/ حتى لَيَبكيني صَدَى صَوتِي/ فأنْحَنِي أمسَحُ فوق شَعْره.. وَأضغَطُ

www.SID.ir

Archive of SID

اليَدَيْن/ وَأشرَبُ الدموعَ من عينيهِ الطِّفلَتَينْ/ وَيَثقُلُ الكَلامُ في فَمِي/ أحُسُّ أحياناً كأنَّما كلامي في فَمِي/ مِثلُ جذوع الشجر القَديمْ... (الفيتوري،١٩٧٠: ٨-٩)

هذا الشعور الّذي ينتاب الفيتوري من حين إلى حين هو وليد ما تلقاه حبيبته إفريقا من ظلم المستعمرين وطغيان المستبدين واستغلال البيض للسود باسم التفوّق والامتياز العنصريّ؛ ووليد الشعور بالضعف والرهبة وكابوس الرعب الّذي يجتاح القارة الإفريقيّة بوجه لا إنساني قبيح، وهو في هذه القصيدة مقدمة لتحدّيات الأجيال الإفريقيّة المعاصرة لكلّ شكل من أشكال العبودية والاستعمار والتخلّف والفقر، ممّا سيجعله الشّاعر موضوعاً لأغنيات إفريقيّة تتحدّث عن روعة الثورات وانبعاث الحضارة، في نهضة إفريقيّة شاملة على طريق المستقبل، تجعل «المعجزة تحل في جسد الأرض العذراء العارية، وتتفجّر في مخيلة الأطفال العبيد إيقاع المستقبل بصخب متوتر وتفتح عبقريّ إنسانيّ، يحوّل الحجر كلمة وإشعاعاً وخضرة وسعادة» (ميخائيل، ١٩٦٨: ٢٦٩-٢٧٠). ولذلك تأتي هذه الكلمات الحزينة المشوبة بكدرة المأساة معاول قوية تضرب تحت أطباق الثرى لتفجّر منها كنوز الأرض، الّتي يبصرها الفكر قبل أن تلمسها اليد، أو تبصرها العين. وهذه هي رسالة الشاعر الملتزم، أن يقدّم لقومه الرؤيا الّتي تفتح أعينهم على المستقبل، فيطلون عليه من نوافذ الشّعر الّذي يتحوّل من كلمات مقولة إلى كلمات فاعلة، ومن مستوي التنظير إلى مستوي التطبيق العمليّ.

«إنّ الفيتوري شاعر له شخصيته المميّزة وطابعه الخاص وأسلوبه الّذي يتفرّد به. له رؤيا السياسيّة وصوته الرافض ومناصرته لقضايا جماهير الشعب العربي. لا يتعمّد الغموض والإبهام ولا يدّعي الحداثة الزائفة، بل إنّه يرى أنّ الشّعر ليس هدفه أن يصوّر الأشياء أو ينقل الطبيعة، بل عليه أن يكون أداة فضح وتحريض وثورة وتحدٍّ» (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٥٥). لذلك يولي اهتماماً ملحوظاً بقضية فلسطين، و«يستلهم معاني شعره من انتفاضة الشعوب المقهورة، الشعوب المستغلة المستضعَفة نجد ذلك كلّه في قضية فلسطين في قصيدة «لو ماتت في شفتي الكلمات» وهو لا ينسى فلسطين ومأساتها، يقول في قصيدة «مقاطع فلسطينية» يستحث الهمم للثأر ويهاجم الخونة الّذين باعوا فلسطين (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٥١). وفي قصيدة «ملك أو كتابة» يتناول قضية فلسطين وما أصابها من خيانة، فيقول:

«عيد السيادة... ذكرى اغتصاب فلسطين.../ عيد فلسطين... ذكرى المعاهدة البربريّة/ عيد الصمود... وعيد الهبوط/ ويوم الصيام... ويوم الضحية/ ... وأفتى إبن مالك والشافعية/ وهذا انقلاب لأجل القضية/ وآخر أيضاً، لنفس القضية...» (الفيتوري، ١٩٨٧: ١٦٥-١٦٦)

www.SID.ir

Archive of SID

هو يختصر موقفه من القضية الفلسطينيّة بهذا البيت من الشعر: «إنّ جرح فلسطين ليس تضمده الكلمات» (ميشال جحا، ١٩٩٩: ٤٥٢). هو شاعر العروبة كان قد بدأ ينظم الشّعر في إفريقا والدفاع عن قضاياها والذود عن مصالح شعوبها، فإنّه لا يتنكّر لواقعه وقوميّته العربية، فهو عربي أولاً وإفريقيّ ثانياً. فلا عجب أن نجد في شعره التيار العروبي صادراً صاخباً. وهو لا بدّ أن يتأثّر بواقع أمته العربية والدفاع عن قضاياها. وقد صدمته الهزيمة الّتي نزلت بها سنة ١٩٦٧ فاكتشف أن الطغيان المسلّط على رقاب العرب من الداخل والخارج، أشدّ وقعاً وأكثر إيلاماً من الظلم التأريخيّ المحيق بإفريقيا وبالإفريقيين.

يضاف إلى ذلك كلّه مسرحيته الشعريّة «عُمَر المختار» البطل الليبي، وهي في ثلاثة فصول. وفيها يظهر أنّ «عمر المختار كان يتزعم الثورة الوطنيّة ضد الطغيان الإيطالي الفاشستي، إلاّ أنّ البطل الحقيقي هو الشعب الليبي نفسه. وله كذلك مسرحية عن يوسف بن تاشفين البطل المغربيّ البربريّ الّذي أعاد للأندلس مجدها بعد أن كاد يتساقط في القرن الحادي عشر الميلاديّ. وهو ناقم وثائر لما أصاب أمته العربية من ذلّ وهوان، ولما ألمّ بها من هزائم وضعف وتشتت. يقول مقرّعاً إيّاها هازئاً وساخراً منها» (نجيب صالح، ١٩٨٤: ٢٣٢):

قد سَقَطَ القدسُ/ وغاضَ حافرُ القاتلِ في دمائنا المحرّمة/ وسقط البُراق والوحي/ فهل عرفتِ، أو هل ستعرفينَ/ متى ستسقطينَ/ يا مكةُ المكرمةُ؟

هو رافض لهذا الواقع العربي المتردّي، «مرة في رفض البالي من القديم وإحلال الجديد محلّه، ومرةً في رفض الظلم وإقرار العدالة الاجتماعيّة ومرةً في رفض قوى المسيطرة والتحكم الأجنبي بكلّ أشكاله السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة ورفض التبعيّة بوجه عام، وإحياؤها على تقديم الاحترام والتقدير» (إسماعيل، دون تا: ٤١٢). ولكن رفضه ليس رفضاً هدّاماً يريد أن يهدم كلّ شيء. «إنّ رفضه رفض بنّاء يبغي من ورائه النهوض بالأمة العربية ودفعها نحو الرقي والتمدن. يبقى الشّاعر الفيتوري يحمل هَمّ الشّعر، وهمّ أمته العربية وهمّ، فلسطين، حيث يقول مخاطباً أطفال الحجارة:

ليسَ طِفلاً، ذلكَ الخارجُ/ مِن قُبعَةِ الحَاخَامِ/ مِن قَوسِ الهَزَائِمْ/ ليسَ طِفلاً وَتَمَاتِمْ/ إنّه العَدلُ الّذي يَكبُرُ في صَمتِ الجَرائِمْ/ إنّه التّأريخُ مَسقُوفاً بِأزهارِ الجماجِمْ/ إنّه رُوحُ فلسطينَ المُقاوِمْ/ إنّه الأرضُ الّتي لم تَخُنِ الأرضَ/ وَخَانَتْهَا الطَرَابيشُ.../ وخَانَتْهَا العَمَائِمْ... (الفيتوري، ١٩٩٢: ٥٥-٥٦)

www.SID.ir

Archive of SID

هكذا يبدو لنا أنّ قصيدة الفيتوري وثيقة الصلة بالواقع العربي، وبالإنسان العربي، وبالتأريخ العربي. وليست قصائده صدىً أو انعكاساً لقصائد الشعراء الآخرين؛ لأنّها نابعة عن صميم قضايا ومشاكل أمّته لا يمكن اقتباسها.

النتائج

١. لقد تطوّر شعر الفيتوري من الرومانسية الذاتية المتشائمة إلى الواقعية الإجتماعية الثورية.

٢. إنّه في البداية كان يشعر بنقص نفسيّ شديد بسبب لون بشرته الأسود، فاستغرق في الرومانسية الحزينة المتشائمة فكدّرته هذه الخيالات الوهمية لزمن.

٣. تغيّرت رؤيته الشعرية فيما بعد فأصبح من روّاد لاتّجاه الواقعي ومن أصحاب شعر الرفض والتمرّد في السودان.

٤. كانت إفريقا مصادر إلهاماته الشعريّة في البداية، ثمّ اتّسع شعره الإنسانيّ الثوريّ، فشمل قضايا عربية عامة تسمّى بشعر «التخوم» اصطلاحاً؛ بسبب تنقله وتعرّفه على مصائب الدول العربية والتطرّق إليها في شعره المعنون بشعر القضايا العربية.

٥. صارت أفريقا عنده رمزاً للتخلّص من مصائبه المؤلمة. شعره لأفريقا هي مناجاة نفسية للتعبير عن الأحزان الموجودة في كوامن نفسه الثائرة.

٦. إنّ شعر الفيتوري في المرحلة الأخيرة اتّسعت دائرته فلا يتعلّق بقضية إفريقا فحسب، بل أصبح شعراً ثورياً عالمياً.

٧. ليست قصائده صدى للآخرين، بل هو شاعر له شخصيّته المتميّزة وطابعه الخاص.

www.SID.ir

Archive of SID

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إسماعيل، عز الدين (دون تا). الشعر العربي المعاصر. بيروت: دار العودة.

٢. أمين العالم، محمود (١٩٧٩م). مقدمة ديوان الفيتوري. ط ٣، بيروت: دار العودة.

٣. بدوي، عبده (١٩٨١م). الشعر في السودان. سلسلة عالم المعرفة، مايو.

٤. جحا، ميشال (١٩٩٩م). الشعر العربي الحديث. بيروت: دار العودة؛ دار الثقافة.

٥. الحافظ، منير (دون تا). التراث في العقل الحداثي، بحوث في فلسفة القيم الجمالية. دون مك: دون نا.

٦. شفيعي كدكني، محمدرضا (١٣٨٠ش). شعر معاصر عرب. طهران: سخن.

٧. صالح، نجيب (١٩٨٤م). محمّد الفيتوري والمرايا الدائرية. ط ٤، بيروت: الدار العربية للموسوعات.

٨. العشماوي، محمّد زكي (دون تا). دراسات في النقد الأدبي المعاصر. بيروت: دار النهضة.

٩. غريد الشيخ (٢٠٠١م). أيام مع الفيتوري. بيروت: دار الكنوز الأدبية.

١٠. الفيتوري، محمّد (١٩٧٠م). الديوان. بيروت: دار العودة.

١١. ـــــــــــــ (١٩٨٧م). الديوان. شرق الشمس غرب القمر. الرباط: منشورات المجلس القوميّ للثقافة العربية.

١٢. محمّد منصور، إبراهيم (١٩٩٥م). الشعر والتصوف. طنطا: دار مبين للنشر والتوزيع.

١٣. مطانيوس، ميخائيل (١٩٦٨م). دراسات في الشعر العربي الحديث. بيروت: المكتبة العصريّة.

١٤. يوسف بقاعي، إيمان (١٩٩٤م). الفيتوري الضائع الّذي وجد نفسه. بيروت: دار الكتب العلمية.

www.SID.ir